كتاب الشباب

يسبح الرعد بحمده
قطرة دم عربي - القصاصة البالية



مجموعة قصص

أحمد عبد السلام البقالي

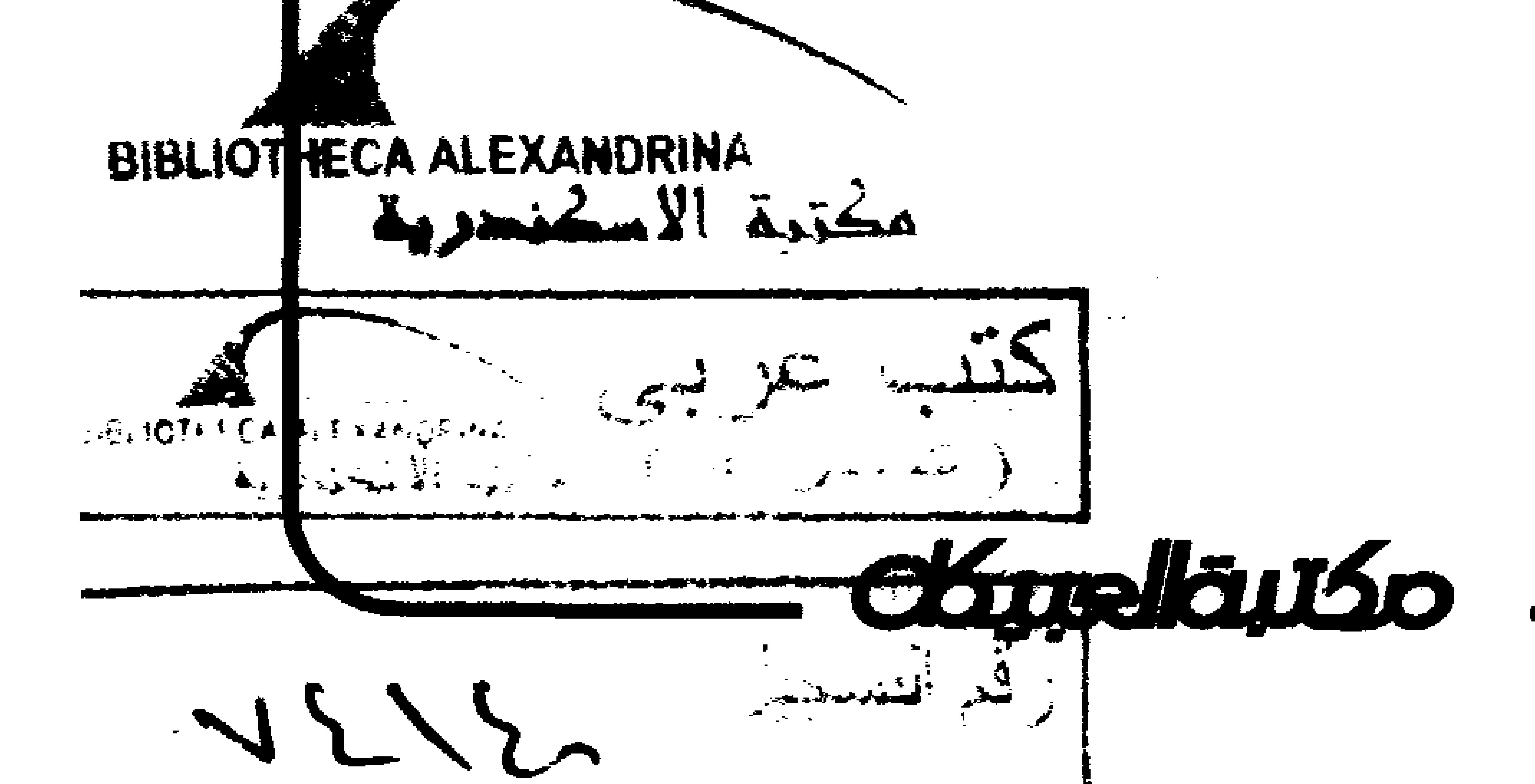
مكتبة العبيكان

مجموعة قصص :

- يسبح الرعد بحمده
- قطرة دم عربي
- القصاصة البالية

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي



ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

يسبح الرعد بحمده، قطرة دم عربي، القصاصة البالية - الرياض

٤٢ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٣-٩-٠-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٨٢٧

رقم الإيداع: ٢٢/١٨٢٧ ردمك: ٣-٩-٠-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



يسبح الرعد بحمده

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

ذهبتُ للاطمئْنانِ على حالِ صديقي «يونسَ الفخَّارِ» بعد الانفجارِ الذي حطَّمَ شُقَّتَهُ، وأتى على كلٍّ ما فيها.

حين رأيتُ واجهةَ العمارةِ التي حدث فيها الانفجارُ في نشرةِ الأخبارِ بالتلفزيون، أيقنتُ أنَّ الرجلَ وجميعَ أفرادِ أسرته قد هَلَكُوا. فقد حَدَثَ الانفجارُ بين العاشرةِ والحاديةَ عَشَرَ ليلاً، في يومِ أَحَدٍ. وكانت شُقَّةُ يونسَ تَقَعُ فوق مطعمِ الدجاجِ المشويِ الذي انفجرتْ فيه عددٌ من قِنِّيناتِ الغازِ الكبيرةِ.

وتنفَّستُ الصُّعداءَ حين قالت المذُيعةُ: «ومِنْ لُطْفِ اللهِ لم تحدُثْ خسائرُ في الأرواحِ!»

وسألتُ حارسَ العمارةِ عن سُكَّانِ الشقةِ، فقال إِنَّهُمْ بخيرٍ، وهم موجودون في بَيْتِ أهلِ الزوجةِ، وأعطاني العنوانَ، فذهبتُ لزيارتِه وتهنئتِه بالسلامةِ ومصالَحَتِه في نفسِ الوقتِ فقد كان، قبل أسبوعٍ، خرجَ من بيتي مُغَاضِبًا، مُتَّهِمًا لي بالرَّجْعِيَّةِ والشعْوَذَةِ وضيْقِ الأُفُقِ. وهي التُّهمةُ الكلاسيكيةُ التي يوجِّهُهَا الماديون المتطرِّفون إلى كُلٍّ من يُخالِفُهمُ الرأْيَ.

كان يونسُ الفخَّارُ صديقًا قديمًا، أُحِبُّ صحبَتَه وأستمْتِعُ بمشاغَبَتِه حين يركبُني شيطانُ المِزاحِ والمَرح العدواني . . . وكان بينَنَا اتفاقٌ، أو تواطؤٌ ضِمْنِيٌّ، على أنَّ صداقَتَنَا فوق المذاهبِ والإيدْيولوجياتِ. وكان يحتمِلُ اختلافي معه في كلِّ شيءٍ إلاَّ في مذهبِه اليساري! كان عندها يتشَنَّجُ ويتوتَّرُ، ويُصبِحُ كالقِنَّبِ المعقودِ أو الحَبْلِ المشدودِ، ويرتفِعُ صوتُه لدرجةِ الزعيقِ، يعْصِفُ خارجًا من المجلِسِ، سواء كان في بيتي أم في بيتِه!

ذهبت إليه في بيتِ أصهارِه، وأوَّلُ سؤالٍ على لساني هو كيف نجَا من موتٍ محقَّقٍ، وهو الذي لا تُؤَذِّنُ عليه العِشَاءُ إلاَّ في بيتِه، وبين زوجتِه وأطفالِه، خصوصًا في مساء الأحدِ؟!

قال لي: «لا يمكن أن أفسِّرَ ذلك إلاَّ بألْطافِ الله الخفيةِ!»

واتسَعَتْ عيناي للمُفاجَأةِ! فهو الرجلُ الذي لم يستعمِلْ كلمةَ «اللهِ» منذ أن اعتَنَقَ الماركْسيَّةَ، ويرفُضُ الإيمانَ بالقضاءِ والقدرِ، ويعتقدُ أن الكونَ من صُنْعِ المصادفةِ العشوائيةِ «كالانفجارِ الأعْظَمِ!»

وأجاب عن دهشتي بقولِه: «لقد غيَّرَ هذا الحدَثُ عِدَّةَ ثوابت خاطئةٍ في تفكيري! كان بمثابَةِ إشارةٍ سماويةٍ حوَّلَتْ شكِّي إلى إيمانٍ. فموتُنا في الإنفجارِ كانَ مُحقَّقًا، لولا حادثةٌ صغيرةٌ وسخيفةٌ تعرَّضْتُ لها أثناءَ دورتي المسائيةِ في «مُنْتَزَه ابنِ سينا.»

وهمَّ بتغْييرِ الموضوعِ، حتى يتفادَى حَرَجَ الحادثِ السخيفِ، ولكنِّي أرجَعتُه إليهِ وقد انفتحت شَهيتيِ لأَهَمِّ ما في القصةِ! وتمنَّعَ قليلاً، ولكنه رَضَخَ لإلحْاحي، مُشْتَرِطاً ألاَّ أضحكَ، وألا أحكِيَهُ لأحدٍ، فوعدتُ. ولكني لم أعِدْ ألاَّ أكتُبَ!

قال: «دُرْتُ في غابةِ الْمنتزهِ دورتين واسعتين. وفي نهايتِهِما وجدتُ أنني ما زلتُ في حاجةٍ إلى ثالثةٍ، حتى أستنفذَ الطاقةَ الباقيةَ، وأُتِمَّ فِكْرَةَ مقالٍ خطرتْ لِي. وكانت الشمسُ قد غرَبَت، وخلَتِ الحديقةُ تقريباً من الناسِ، وأَقفَلَتِ المقاصفُ الثلاثةُ أبوابها، وجمعت كراسيَها.

ونزل ظلامٌ ثقيلٌ على غيْرِ العادةِ، فقد كان الوقتُ

منتصفَ شهرِ نوفَمْبَر، وقد تأخَّرتِ الأمطارُ وقَنطَ الناسُ. ونظرتُ إلى السماءِ فإذا سحابةٌ سوداءُ تنتشِرُ بسرعةٍ فوق قممِ الأشجارِ، تَسبِقُها ريحٌ قويةٌ، ثم تنفتِحُ أبوابُها بمطرٍ غزيرٍ نفَذَتْ قَطَراتُه الكبيرةُ إلى جلدِي... وركضتُ باحثًا عن ملجإٍ، وأنا أحمدُ اللهَ على الرحمةِ الهابطةِ من السماءِ! ولم أجدْ إلا بيتَ ماءِ المقصفِ البعيدِ عن البابِ الرئيسي للمُنتَزه.

«وما كدتُ أدخلُ المكانَ وأخلَعُ سُتْرتي لأَنفُضَ عنها البَلَلَ، حتى ملأَ الغُرْفةَ تيَّارُ ريحٍ عاصِفٍ جَرَفَ البابَ وأقفلَهُ عليَّ! وأسرعتُ لفتحِه فإذا مِقْبَضُ الزِّتاجِ قد انكسَرَ. وبحثْتُ حولي عن شيءٍ أفتحُه به فلم أجدْ. وحاولتُ فتحَهُ بكلِّ وسيلةٍ فلم أُفْلِحْ. وفكَّرتُ في كسْرِهِ بركْلِه برجلي أو دَفْعِه بكَتِفي، دون جدوَى... وبحثتُ عن نافذةٍ أخرجُ منها، فإذا النوافذُ مُجَرَّدُ كُوَّاتٍ صغيرةٍ للتهْوِية، لا تَتَّسِعُ لخروجِ طفلٍ!

«وأصابني الذُّعْرُ، فَطَفِقْتُ أصيحُ، وأَدُقُّ بكِلْتَيْ قَبْضَتَيَّ على البابِ، لعلَّ أحداً يسمعُني، بلا فائدةٍ! كان المطرُ يتهاطَلُ بقوةٍ هائلةٍ، والبرقُ يملأُ عليَّ المكانَ المُعْتِمَ بومضاتٍ متعاقِبَةٍ،

مُبشِّرًا بالمزيدِ من الأمطارِ القادمةِ من المُحيطِ.

ولِحُسْنِ حظِّي، كان المكانُ نظيفًا ورائحتُه غيرَ كريهةٍ. ولم يكن كذلك قبل بضْعةِ أيَّامٍ. وعدتُ إلى الصِّياحِ فأغرق صوتي هزيمُ الرعدِ الهادرِ، وكأنه مئاتُ البراميلِ الفارغةِ تُدحْرِجُها صخُورٌ هابطةٌ من الفضاءِ...

ولم يبقَ لي أملٌ في أن يسمَعَ استغاثَتي أحدٌ؛ فلابد أنَّ المطرَ الطوفاني أفرغَ الغابةَ الكثيفةَ من روادِها... وداعَبَني رجاءٌ خافتٌ في أن يتوقَّفَ المطرُ، ويخْرُجَ أحدُ حُرَّاسِ الحديقةِ على فرسِه، كعادتِه، ليتفقَّدَ الحديقةَ قبل إقفالِها.

«وكأنَّ اللهَ استجابَ لرجائي، فأمسَكَ الرعدَ، وحبَسَ المطرَ. وأرهفتُ سمعي إلى: كُلِّ صوت حولي، وكأنَّ حياتي تتوقَّفُ على ما سأسمعُه! كان الماءُ الذي تجمَّعَ فوقَ سطحِ المقصِفِ ينصبُّ بقُوَّةٍ من قادوسِه بالخارجِ. وانتظرتُ حتى خفَّ صبيبُه، ولم يبقَ إلا صوتُ وقْعِ القطراتِ الكبيرةِ من الأشجارِ على الأرضِ. وخُيِّلَ لي أنني سمِعْتُ وقْعَ حوافِر حصانٍ يقترِبُ. وترامَى إلى سمعي صَهيلُ حصانٍ فتأكَّدَ

حَدْسي، وأخذْتُ أصيحُ بأعلى صوتي: «النجدة! النجدة! أنا هنا مسجون في بيت الماء!» وتوقَّفَ الحِصانُ عن السيرِ، فحمِدتُ اللهَ على أنه سمِعني، وأن الفرجَ قريبٌ! وعدتُ إلى الاستِغاثَةِ، ليتأكَّدَ الحارسُ من وجودي. ولكنه، لاستغرابي الشديدِ ولسوءِ حظِّي، لَوَى عنق الحصانِ، وعاد من حيثُ أَتَى راكِضًا لا يلْوِي على شيءٍ!

ولا أدري ما إذا كان ذهابُه فِراراً من صوتي، ظنًّا منه أنه عَزيفُ جنِّيٍّ، يستدْرِجُهُ ليتَقَمَّصَهُ ويَسْكُنَه، أو أنه عرفَ صوتي وتعمَّد الابتعادَ، ليترُكَني لمصيري، انتقامًا منِّي! فقد سبقَ لي أن شَكوتُ إدارَةَ الحديقةِ إلى المُحافِظِ، لإهمالها للمرافِقِ الصحيَّةِ بها. ويبدو أن المُحافِظَ الذي كان من رُواد المنتزهِ، ومنَ العاملين على إنشائِه، تأكدَ بنفسِه من صحة شِكواي، ووبَّخَهم، وأرغمَهُم على تنظيفِها يوميًا. وهو عملٌ يأنفون منه ويكرهونَه! ولكنهم ظلُّوا حاقدين عليَّ، لأنني نبَّهتُهم مِراراً إلى تفريطِهِم، قبل اللُّجوءِ إلى السيدِ المُحافِظِ! وحمِدتُ اللهَ على نظافةِ المكانِ، وإلاَّ كنتُ اختْنقتُ فيه!

ودعوتُ اللهَ أن يهديَ الحارسَ فيعودَ؛ ولكنَّه لم يعُدْ. ونظرتُ حولي في ضوءِ البرقِ الوهَّاجِ الذي كان يمحُو الظلامَ الثقيلَ؛ فإذا الأرضُ مبتلَّةٌ، والحيطانُ ندَّيةٌ، ولا مكانَ للاسْتِلْقاءِ ولا حتى للجُلوسِ.

وفي تلك اللحظةِ فقط، شعُرتُ بالتَّعبِ وتورُّمِ القَدَمَيْنِ من ركضي الطويل ذلك المساء، وأحسسْتُ بإِرْهاقٍ نفسيٍّ شديدٍ للمحنةِ المفاجئة التي وجدتُ نفسي فيها. وأَخَذْتُ أستعِدُّ لليلٍ طويلٍ، فخلعتُ أَحَدَ نَعْلَيَّ السميكَيْنِ، وقعدتُ عليهِ، ووضعتُ رجليَّ الحافيتينِ على النعلِ الثاني، واتَّكَأْتُ علي البابِ الخشبيِّ الجافِّ أَلْتَمِسُ بعضَ الراحةِ.

ونظرتُ إلى ساعتي في ضوءِ البرقِ، فإذا هي الثامنةُ مساءً. وذلك يعني أنني سأبقَى حبيسًا حوالِي عَشْرِ ساعاتٍ! فالحديقةُ لا تُفتَحُ إلاَّ في السادسةِ صباحًا.

وزادَتْ حسْرَتي حين فكرتُ في زوجتي وأولادي؛ لا شكَّ أنهم سيموتون قلقًا لاختفائي المفاجِئِ. فهم يعرفون عاداتي، وليس منها التأَخُّرُ ليلاً دون علمِهم، خصوصًا مساءَ الأحدِ،

لأنني آخذُ فيه حمَّامًا طويلاً، وأجلسُ فيه معهم للتلفزيون، استعداداً واستجماماً ليومِ الإثنين الأزرقِ الشاقِّ!

«وتصورَّتُهم وجميعَ أصهاري يبحثون عني طولَ الليلِ في المستشفيات ومخافرِ الشُّرطةِ. لن يخْطُرَ ببالِ أحدٍ منهم أينَ أنا ولا ما أنا فيه مِنْ هَوانٍ!»

وتنهَّدَ صديقي يونسُ الفخّارُ، وكأنَّ تذكُّرَهُ للحادثِ أعاد إليه المِحنةَ من جديدٍ، وقال: «لن أُطيلَ عليك؛ فقد قضيتُ ليلةً لن أنساها ما حَيِيتُ!»

فقلت مستزيداً: «هل أحسَسْتَ بالخوفِ؟»

فردَّ مسْتغربًا سؤالي: «تسألني هل أحسستُ بالخوف؟! قلْ هلْ أحسستُ بالرعبِ! بالفزعِ الكبيرِ! لم يبق شعورٌ عميقٌ إلا جرَّبْتُه! وصدِّقْني يا أخي، إنني خرجت من تلك التجربةِ إنسانًا آخرَ تمامًا. فقد عشت طولَ حياتي خارجَ نفسي، مع الناسِ، ومع العالمِ. ولكنني في تلك الليلةِ عشتُ مع نفسي، بل وداخلَ أَنْفاقِها ومَغَاوِرِها العميقةِ المظْلمَة. كنت أرى عقلي يتغلْغلُ في شِعابِها ومسالِكِها وممَرَّاتها المُلْتوِيةِ، وهو مبهورٌ بما

تختَزِنُه من أسرارٍ وأحداثٍ كبيرةٍ وصغيرةٍ، مَنْسيةٍ وغامضةٍ، كان لها أثرٌ في تشكيلِ حياتي وتوجيهِها دونَ أن أدري... وما كان يوقِظُني من عُمقِ استبْطاني إلاَّ ومْضُ البرْقِ الساطعِ، وهَزيمُ الرعدِ الهادرِ الذي كان يهُزُّ الجدرانَ من حولي...

وراودني أملٌ في أن يلاحظوا سيارتي على باب الحديقةِ، فيساوِرُهم الشكُّ في أن يكونَ صاحبُها ما يزالُ داخلَ الغابةِ لسببٍ من الأسبابِ، فيأتون للبحثِ عني. وصعِدَ الأدرينالينُ في عَمودي الفِقَري وزوَّدني بِشُحْنَةٍ من الطاقةِ، فوقفت أنادي وأُنبِّهُ إلى وُجودي، من جديد، لإسعادِ الباحثين عني. ولكن مَوْجةً باردةً من الخيبةِ أطفأت حماسي المفاجئ! فقد تذكَّرتُ أنني تركتُ السيارة ببابِ الفندُقِ الكبيرِ، لازدحامِ موقفِ الحديقةِ بالسيارات! وعدتُ إلى القُعودِ وقد وقفتْ في حلْقي غُصَّةٌ حاميةٌ، وكِدْتُ أبكي من القَهْر!

ومع العاشرةِ ليلاً خفَّ حسيسُ السياراتِ في الطريقِ المحاديةِ للغابةِ. وكانت عجلاتُها تشُقُّ بِركَ الماءِ، وتُلْقِي به كالأَجنِحَةِ على الرصيفِ. وغلبني النُّعاسُ، رغم وضعي غيرِ

المريحِ فغرِقتُ في نومٍ ثقيلٍ كالإغماء بلا أحْلامٍ...

ولا أدري كمْ مرَّ عليَّ وأنا كذلك، حتى أيقظَني انفجارُ رِعدةٍ هائلةٍ حَسِبتُها ستهُدُّ السقفَ فوق رأسي! وصعِدتُ على حافَّةِ المغَسَلِ لأنظُرِ من الكُوَّةِ الصغيرةِ إلى الخارج، فإذا نارٌ مشتعِلةٌ في مجموعةٍ من أشجارِ الأَرْزِ الكثيفةِ حول حُفْرَةٍ عميقةٍ. لابد أنها الصاعقةُ التي أخطأتِ المقصِفَ، ونزلت قريبًا منه وهزَّتِ المكانَ من حولي والأرضَ من تحتي وحفَرَتِ الحفرةَ العميقةَ!

وملأ عليَّ البرقُ المكانَ كوهَجِ الظهيرةِ مدةً طويلةً، وأَعْقَبَهُ قصْفُ الرعْدِ المتوالي، وكأنه طحْنُ رحىً في حجْمِ الجبالِ! فوضعتُ كفَّيَّ علَى أذنيَّ، وانكفأْتُ على الأرضِ كالساجدِ، أردِّدُ بصوتٍ عالٍ الآيةَ الكريمةَ: ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ** ﴾

وتذكرتُ والدي، رحِمَهُ اللهُ، وهو يُلَقِّنُني هذه الآيةَ وأنا طفلٌ صغيرٌ، لترديدِها كُلَّما أفزعَني هديرُ الرعدِ، فأدخلَتْ

الطمـأنينةَ علـى نفـسي، كـمـا كـانت تفـعلُ وأنا طفلٌ دون البُلوغِ.

وانفتحت أبوابُ السماءِ، وتهاطلتْ أمطارٌ في غزارةِ أمواجِ البحرِ، فأطفأتِ النارَ وأنقذتِ الغابةَ الجميلةَ من حريقٍ مَهُولٍ، وأنقذتني أنا منَ الموتِ اختناقًا...

وصعِدتُ لأتفرَّجَ عليها من الكُوَّةِ، بفُضولٍ صبياني لا يقاوَمُ. فرأيت أدواحَ الصفْصافِ الرشيقةِ تتمايَلُ بفعلِ الريحِ، وسيقانُها الناعمةُ تلمَعُ وهي تتراقَصُ وتتعانَقُ، وكأنَّ جدائلَ أغصانِها سوالِفُ عَذارَى يَسْبحْنَ ويمرَحْنَ على ضفافِ بُحيرةٍ...

« وترامت إلى سمعي أصواتٌ شِبْهُ آدميةٍ من رؤوسِ الأشجارِ متضاحكةً متمازِحَةً، وكأنها سعيدةٌ جذلَى بنزولِ الغيثِ بعد طولِ انحباسٍ! »

* * *

وأراد أن يُنْهيَ الحديثَ، وقد أرهقَهُ المجهودُ واستِرْجاعُ الذكرَى، فسألته: « ولكن كيف خرجت؟ » فأجاب: « أنقذني

من وحشتي ووحدتي، ومن الصمت الهائل الذي ساد الغابةَ، بعد موتِ العاصفةِ، أذانُ الفجرِ الآتي من مسجدٍ عتيقٍ بعيدٍ. فأخذتُ أتلُو في سرِّي كلَّ ما علِقَ بذاكرتي من السوَرِ والآياتِ القرآنيةِ، إلى أن أخذَتني سِنَةٌ من النوم.»

وابتسم وأضافَ: «وكأنَّ اللهَ أرادَ أن يخففَ عنِّي محنتي، فأيقظني على وقْع أقدامٍ تتكسَّرُ تحتها الغصونُ وحركاتِ شخصٍ يحاوِلُ فتْحَ البابِ عَبثاً. فقلت له: «اسمعْ يا أخي...» ولم أكَدْ أُتِمُّ الجملةَ حتى سمِعتُ صُراخَه وهو يبتعِدُ راكضًا، وكأنه كلْبٌ تلاحقُه الهَراوات! كان يصيحُ بصوتٍ مُضْحِكٍ شبيهٍ بـ«كْعاي كْعاي كعاي..!» ثم أخذ يُبَسْمِلُ ويُحَوْقِلُ بصوتٍ عالٍ حتى انقطعَ صوتُه.

وبعد بضْعِ دقائقٍ حضرَ جماعةٌ من الحرَّاسِ، يتقدمهم الرجلُ المذعورُ والحارسُ الفارسُ فوقَ حِصانه، فنادَى من بعيدٍ: «مَنْ هناك؟» فقلت: «أنا! افتحْ، اللهُ يخلِّيك!» وانفتحَ البابُ، وخرجتُ أتنَفسُ الهواءَ الطلقَ، وكأنني قضيتُ هناكَ شُهورًا! ولم أُجِبْ الحارسَ الذي أخذ يسألني عمَّا حدث

ويحرِّكُ ذيلَهُ ليَسْتُرَ شَمَاتَتَه أو جُبْنهَ... ومشيتُ مسرعًا بين أعْجازِ الأشجارِ الساقطةِ كجُثَثِ المجاهدين، وأنا أُسَلِّمُ عليها، وأترحَّمُ على أرواحِـهـا بقلبٍ خـاشعٍ. وعـدت إلى أهْلِي لأُنقِذَهم مما هم فيه من حيرةٍ وقلقٍ.

«وحين دخلتُ شارِعَنا، انقبضَ قلبي؛ فقد كان الشارعُ عامراً بالناس وسيارات الإطفاء والإسعاف. وحين وقعتْ عينايَ على عمارتِنا، وقد انفتحتْ في شُقَّتِنا فوهةٌ ضخمةٌ، احترقتْ الأبوابُ والنوافذُ، واسودتْ الجدرانُ، أحسستَ بضعفٍ شديدٍ في قلبي، وفراغٍ في ركبتيَّ، وأُغمِيَ عليَّ!

وحين أفقتُ وجدتُ نفسي محاطاً بزوجتي وأطفالي وأصهاري، فضممتُهم إلى صدري واحداً واحداً، وأجهشتُ باكيًا، وقد انزاحَ كابوسٌ ثقيلٌ عن صدري.

ولم أُدْرِكْ إلا فيما بعد أنَّ حبسي ببيتِ ماءِ الحديقةِ لم يكنْ حدثًا عشوائيًا، بل كان قضاءً محسوبًا وقدرًا مكتوبًا من تقدير خالقٍ عظيمٍ رحيم. وتذكرتُ... تذكرتُ ساعاتِ جدلي السخيفِ معكَ حولَ حقيقةِ القضاءِ والقدرِ، وقررتُ أن

أعترفَ وأعتذرَ لكَ... »

قلتُ: « لا حاجةَ بكَ إلى ذلكَ؛ فقد كنتُ دائمًا متأكداً من عودتِك إلى الإيمان! »

وقبل توديعه سألتُه سؤالاً أخيراً: « يا ترى ما هي أصعبُ لحظةٍ مَرَّتْ بك أثناءَ كلِّ هذه المحنة؟ »

فأغمضَ عينيه، وتنهَّدَ، وقال: « كنتُ أتمنى ألا تسألني هذا السؤال! »

فقلتُ: « ولكني سألته! »

فقال: « أصعبُ ما مرَّ بي هو الجوابُ على السؤال: "أين قضيتَ الليلةَ؟!" »



قطرة دم عربي

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

خرجتُ، بعد الإفطارِ من فُندُقي بمدريد، قاصداً بسيَّارتي وكالةَ الطيرانِ الملكي الأردُني، لآخذَ تَذْكرةً محجوزةً لي هناك، للسفرِ إلى عمَّانَ للمشاركةِ في لقاءٍ ثقافي.

وفي طريقي إلى وسَطِ المدينةِ حيث توجدُ الوكالةُ بشارعِ (غران بيا)، أكبرِ شوارعِ العاصمةِ الإسبانيةِ، استوقفتني سيدةٌ إسبانيةٌ مُسِنَّةٌ، وطلبت منِّي إيصالَها إلى بابِ حديقةِ (الرِّيتيرو)، فأشفقتُ من حالِها. كانت سيدةً عجوزاً منحنيةَ الظهرِ، تتكئُ على عَصَا. وأنا حين يتعلقُ الأمرُ بكبارِ السنِّ أو الأطفالِ أو المُعاقين أو المرضى، ضعيفٌ جداً وطيب جداً، أي مُغفَّلٌ كبير!

وهكذا، توقَّفتُ، وفتحتُ لها البابَ، وأخذتُ منها عصاها، وانتظرتُها حتى ركِبت بجَهدٍ جهيدٍ...

وانطلقتُ بها، وهي تُرشِدُني إلى المكان الذي تقصِدُه. وكانت تنظُر من خلالِ نظارتِها السميكةِ مرَّةً، ومن فوقِها مرة أُخرَى. وبَدَتْ لي أنها غيرُ متأكدةٍ من الطريقِ، ولا من المكان الذي تقصِدُه! وابتعدنا عن حديقةِ «الريتيرو» الكبيرةِ التي

تملأُ قلبَ «مدريد». وبدأَتْ تقتربُ ساعةُ إقفالِ وكالةِ الطيرانِ، وبدأتُ أردِّدُ في سرِّي «الصبرُ طيِّبْ» و«حُفَّتِ الجنةُ بالمكارهِ.»

وخطرتْ ببالي عدةُ أفكارٍ تساعدُني على احتمالِ ما أنا فيه، ومنها أنني قد يطولُ بي العُمْرُ، مثلَها، وأحتاجُ إلى مثل هذه المساعدةِ. ومنها أن اللهَ تعالى ربما قيَّضَني إليها لأَرُدَّ لها مساعدةً كانت هي، في شبابِها، قدَّمتها لشخصٍ عاجزٍ أو ضعيفٍ، مثلِها الآن!

ولكنَّ الفكرةَ التي حقنتني بشُحْنَةٍ عاطفيةٍ أكبرَ، وساعدتني على الصبر والاحْتَمالِ، هي أن هذهِ العجوزَ الإسبانيةَ قد تكون حاملةً في دمِها لقطرةٍ من الدمِ العربي، فتكونُ قريبةً أو نسيبةً! ذلك أن أجدادي لأُمِّي قدِموا من الأندلسِ الحبيبةِ!

وبعد ما يقرُبُ من أربعينَ دقيقةً من السيرِ الخاطئِ في شتَّى الاتجاهاتِ، بَدَا عليها أنها تعرَّفتُ على الطريقِ الصحيحِ. وبدا عليها فرحٌ صبيانيٌّ، وطلبت منِّي التوقُّفَ على بابٍ ضخمٍ من

شبابيكِ الحديدِ والنُّحاسِ. وأوقفتُ السيارةَ وخرجت لأفتحَ لها البابَ، وهي تشكُرُني بصوتٍ واهنٍ مرتعشٍ!

وما إن فتحت البابَ، حتى قفزَتْ خارجةً من السيارةِ مثلَ شابٌ رِياضيٌ قويٌ! ونزعتْ عن رأسِها باروكةَ شَعْرٍ مستعارٍ أشيبَ، فإذا بها شابٌ طويلٌ أشقرُ الشعرِ، ينحني أمامَ جماعةٍ من الشبانِ، يبدو أنهم كانوا ينتظرونه في ذلك المكان.

ووقفتُ أنظرُ إليه وإليهم، وأُحرِّكُ رأسي في استهجانٍ للمَقْلَبِ السخيفِ! وجاء الشابُّ - العجوزُ سابقًا - وانحنَى أمامي، انحناءَةَ ممثلٍ مسرحيٍّ، وأخذَ يردِّدُ: «ألفُ عذرٍ، سيدي!» واجتمَعَ رفاقُه حولَنا، فقال لي إنه مدينٌ لي باجتيازِه امتحانًا مُهِمًّا لدخولِ مدرسةِ التمثيلِ، وهذه هي هيأةُ الامتحانِ!

وطلب مني أن يأخذَ صورةً معي، فوقفتُ، وأنا لا أدري هل أضحكُ من غفلتي أم أَلْعنُهُ، لأنه أضاعَ عليَّ موعدي مع الوكالةِ! ولكنني كَظَمْتُ غيظي، وابتسمتُ لآلةِ التصويرِ، وأنا أشعُرُ مثلَ السمكةِ الكبيرةِ التي يتصوَّرُ صائدُها إلى جانبِها!

وحتى لا يبقَى في نفسِي شيءٌ مما حدثَ، طلب مني

مُشَارَكَتَهم غَدَاءَهم. وحين أخبرتُه بموعدي، وضع على أُذُني قُرُنْفُلَةً، وصافحَني بحرارةٍ وأقفلَ بعدي بابَ السيارةِ مُوَدِّعًا.
فانطلقتُ متوجهًا نحوَ الوكالةِ.

وما كدت أصلُ إليها حتى فُوجِئْتُ بازدحامٍ غيرِ عادي وتوقُّفٍ تامٍّ في حركةِ المرورِ بشارعِ (غْران بيا) الرئيسي، إلاَّ ما كان من سياراتِ الإسعافِ والإطفاءِ. وسألتُ رجلَ أمنٍ عما حدث، فأخبرَني بأنَّ قنبلةَ انفجرت في وكالةِ الخطوطِ الملكيةِ الأردنيةِ. وأن عدداً من مُوظفيها وزُبنائها أُصيبوا!وعلمت منه أن الانفجارَ وقع في الساعةِ الحاديةَ عشرةَ، وهو الوقت الذي كنت أحرِصُ على أن أكونَ في الوكالةِ فيه، لولاَ وقوعي في فَخٍّ العجوزِ المزيفَةِ!

﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

صدق الله العظيم.





القصاصة البالية

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

في قـمَّـةِ نشـوته، وقفَ كـمالُ يوسفُ الرسامُ التـشكيليُّ الشهيرُ، فوقَ كرسيٍّ يُحَيِّي بكلتا يديه جمهورَ الحاضرين في حـفل تدشينِ مـعـرضـهِ الأخـيـر، ويوزِّعُ عليـهم القـبـلاتِ في الهواء. وَصَاحَ:

– أَشْكُرُكُم، أَيُّهَا الأَعِزَّاءُ وحُبِّي لَكُم! أَنتُم أَصْحَابُ ذَوْقٍ رَفِيعٍ بِتَقْدِيرِكُمْ لِلفنِّ، وَتَكْرِيمِكُمْ لِلْفَنَّانِينَ! فَقَدْ جَعَلْتُمْ مِنْ مَعْرِضِي هَذا شَهَادةً عَمَلِيَّة عَلَى نَجَاحِي كَفَنَّانٍ، فَلأَولِ مرَّة في التاريخِ تباعُ كلُّ اللوحـاتِ في حـفلِ التـدشينِ في أيِّ مـعـرضٍ! أنا شـاكـرٌ حُبَّكُمْ، وأُبادلُكم حـبًّا بحبٍّ. وأعـانقُكم واحـداً واحداً. وكـان بودّي لو أقولُ «وواحـدة!» لولا خـوفي من بعضِ الغيورين!

وعلا ضحكُ الحاضرين، فأضافَ كمال يوسف:

«أعدكُم أن نلتقيَ هنا في السنةِ القادمةِ، إِن شاءَ اللهُ، في معرضٍ أجملَ. فقد طوقتُم عنقي بِدَيْنٍ لن أنساهُ!»

ونزلَ من فوقِ الكرسيِّ يُحَيِّي الحَاضِرِينَ ويُوزِّع الابْتِسَامَاتِ مُلَوِّحاً بِيَدِهِ وَمُصَافِحاً لِبَعْضِهِم. وفجأةً ارتفعَ تصفيقٌ حادٌّ فرفع

كمالٌ رأسَه مُنْدَهِشًا وقال موجهًا الكلام لمن حولَه:

« كنتُ أظنُّ أنَّ اليدَ الواحدةَ لا تصفقُ. وكلُّكم مُمْسِكُون بكؤوس، فمن أينَ جاءَ هذا التصفيقُ؟! »

وعلمَ أنه جاءَ من حفلِ تكريمٍ في القاعةِ المجاروةِ، فخرجَ يستعلمُ.

وعلى بابِ القاعةِ سألَ نادلاً، فقال له:

«إنهُ حفلُ تكريمِ الموظفِ السامي المتقاعدِ، السيدِ عبدالله كَرَم.»

واختَفَت الابتسامةُ من وجهِ الفنانِ كمالٍ يوسفَ لمجرَّدِ سماعِ ذلك الاسمِ! وأحسَّ بأعصابهِ تتوترُ.

ودخلَ ببذلةِ رُعاةِ البقرِ الزرقاءِ الحائلةِ اللّونِ التي كانتْ من علاماتهِ المميّزةِ كفنانٍ، ومشى بين كبارِ الموظفين الرسميّين من ذوي البِذَل الداكنةِ والربطَاتِ والقمصانِ الحريريةِ الغاليةِ، والساعاتِ الذهبيةِ ذاتِ الأسماءِ المعروفةِ، حيثُ كان شاعرٌ مجهولٌ يلقي قصيدةَ مَدْحٍ في الموظفِ السامي المتقاعدِ. وهذا ينصت بإعجابٍ وامتنانٍ خافضَ الرأسِ.

وبعد التصفيقِ، تقدَّم إليه رئيسُه الوزيرُ بهَديَّتَيْن، وقال له: إنَّ إحداهُما من الوزارة، والثانيةَ من مجموعِ زملائه، اعترافًا بفضلهِ، وحفظًا لذكراه. وصفقتِ الجماعةُ طالبةً منه إلقاءَ كلمةٍ، فتردَّدَ وهو يفتحُ الهديتين، ويقلِّبهما بين يديه، وأخيراً قال:

«غريبٌ أن تُهْدَى ساعةٌ وقلمٌ لموظفٍ متقاعدٍ لم يعدْ في حاجةٍ إليهما.»

ضحكَ الحاضرون، فأضاف:

«وكأنَّ لسانَ الحالِ يقولُ له: "اكتبْ مذكراتك، فلمْ يبقَ لكَ وقتٌ طويلٌ بيننا!" وأنا أقولُ لكم، أيها الإخوةُ الأعزاءُ، من الآن، إنني لستُ عازمًا على الرحيلِ بهذه السرعةِ! (ضحك) وسأبقى بينكمْ طويلاً، إن شاءَ اللهُ. فأسناني كلُّها ما تزالُ في فمي. ومعدتي تطحنُ الحجرَ!»

وصفقتِ الجماعةُ وعلت القهقهاتُ ثم عبَّر عن شكرهِ الجزيلِ على الحفاوةِ التي لا يستحقُّها ووفاءَ الزملاء الذي قلَّ نظيرُه في هذه الأيام.

وتطرَّقَ إلى طريقتِه في العملِ فقالَ: إنهُ كان يؤمنُ بالديموقراطيةِ إيمانَ العجائزِ، ويعطي أصغرَ أعضاءِ لجانه نفسَ الصوتِ والوزنِ الذي يعطيه لنفسه.

وأضافَ إنه ربَّما كان قدْ داسَ على قَدَمٍ أو قَدَمَيْن أثناء أداءِ مهمتهِ الصعبةِ في مدى أربعين سنةً من العملِ. وإنه كانَ دائمًا يستشيرُ ضميرَه، ويحتكمُ إلى العقلِ والمنطقِ، رائدُه المصلحةُ العليا للوطن. وإنه إذا كانَ أساءَ لأحدٍ، دونَ قصدٍ، فإنهُ يلتمسُ منه العفوَ والمغفرةَ.

وكرَّرَ تشكراتهِ لجميع من شاركَ في تكريمهِ، ونزلَ وسط ضجةِ التصفيقِ.

كانَ الرسامُ «كمال يوسف» يقفُ على حافَّةِ أعصابه. اسْتَفَزَّتْهُ كلماتُ الموظفِ المتقاعدِ عبدالله كرم استفزازًا شديدًا، وأعادتْ إلى حاضرِه ذكرى حادثٍ وقع له معه عانى فيه ظلمًا وكرْبًا شديدين...

ولم يتمالكُ نفسَه، فوقفَ على كرسيٍّ، وأخذَ يصفّق وينادي بصوتٍ عالٍ حتى جلبَ انتباهَ الجميع، وقال:

«أيُّها الحفلُ الكريمُ! يجبُ، أولاً، أن أعترفَ بأنني لستُ مَدْعُوًّا إلى هذا الحفل. أنا أوجدُ هنا بمحضِ المصادفةِ. كنتُ أحضرُ تدشينَ معرضٍ فَنّيٍّ لبعضِ لوحاتي بالغرفةِ المجاورةِ، فسمعتُ تصفيقَكم. وحين علمتُ أنكم تُكَرِّمون الأستاذ «عبدالله كرم» قلتُ لابدَّ أن أُساهمَ في هذا التكريمِ، أن أساهمَ بتكريمٍ حقيقيٍّ لا مجاملةَ فيه، ولا تملُّقَ ولا نفاقَ! فأعظمُ تكريمٍ، في نظري، هو أنْ نقولَ الحقيقةَ للمكَرَّم في وجههِ وأمام الناس!»

وقاطعه الحاضرونَ بتصفيقٍ خفيفٍ. واستأنف:

«الأستاذُ كرم، صاحبُ السعادةِ سابقًا، حدثتْ لي معه قصةٌ طريفٌ، منذ أزيدَ من عشر سنوات، أعتقدُ أن الجميعَ سيحبُّ سماعَها، خصوصًا الذينَ داسَ على أقدامِهم. إنه قدْ لا يذكرُها. كانتْ مصلحتُه، وينبغي أن أقولَ «مملكتَه المُوَقَّرة»، قد أعلنتْ عن مباراةٍ لتوظيفِ رسامٍ، وتَقَدَّمْتُ أنا بملفٍّ كاملٍ بالرسومِ المطلوبةِ. كنتُ واحدًا من بينِ عشرينَ رسامًا. واجتمعتْ لجنةُ التحكيمِ المكونةِ من بعضِ الفنّانين

المعروفين. وأسفرَ الفوزُ الأولُ عن ثلاثةِ رسامينَ كنتُ أنا على رأسِهم، بلا فخر! وكما أخبرني مصدرٌ مطَّلعٌ، كما يقولُ إخوانُنا الصحافيون، كنتُ أنا في المقدمةِ، وبيني وبينَ المرشح الثاني مسافةٌ بعيدةٌ!

«وقبل أن أقولَ لكم ما حدثَ، وأخبركم بما فعلَ هذا الموظفُ السامي، صاحبُ السعادة «عبدُالله كرم»! يجبُ أن أخبركم بأنني كنتُ أعيشُ أقسى ظرفٍ في حياتي. والدتي، رحمها اللهُ، كانتْ طريحةَ الفراش في مستشفى مجَّاني حقير، تعاني من مرضٍ قاتل، تنتظرُ ساعة الرحيل. ووالدي عاطلٌ لمدة طويلة، ويتمنى لو يموتُ بدلها. إخوتي في البيتِ جائعون وأنا أخوهُم الأكبرُ، الابن البكرُ الذي تقعُ عليه المسؤوليةُ بعد السيد الوالد.»

وانحبسَ صوتُه قليلاً، وصارعَ ليقولَ: «وكانتْ حاجتي إلى ذلك الوظيفِ الصغيرِ حاجةَ الغريقِ إلى طوقِ نجاةٍ! كنتُ أريدُ، أكثرَ من أيِّ شيءٍ على وجهِ هذه الأرضِ، أنْ آخُذَ لوالدتي الحبيبةِ، لوالدتي العزيزةِ، موزةً، أو تفاحةً تُدْخِلُ على

قلبِها السرورَ في لحظاتِ حياتِها الأخيرة!»

ووضعَ وجهَهُ بين كفيه وأجهشَ باكيًا. وحاولَ أحد الواقفينَ أن ينزله بلطفٍ، فسحبَ ذراعَه منه بعنفٍ.

وتدخَّل عبدُالله كرم:

«أرجوكم، دعوه يُتِمُّ كلامه. دعوه يُنَفِّس عن نفسه.»

فردَّ الرجلُ:

«ولكنْ هذا حفلُ تكريمٍ، وليسَ محكمةً لتصفيةِ الحسابات!»

«حقًا، ولكنهُ حفلُ تأبينٍ كذلك. فأنا ما زلتُ على قيدِ الحياةِ، وأريدُ أن أسمَع كلَّ ما يقالُ عني، خيراً كانَ أو شراً. أرجوك!»

وتماثلَ «كمال يوسف» وَمَسَحَ وجهه بمنديلهِ الكبيرِ، وقال:

«أتَدْرونَ ماذا فعلَ صاحبُ السعادةِ هذا المكرمُ، صاحبُ الضميرِ الحيّ؟! شطب اسمي وأثبتَ اسم الرسّام الثاني، غيرَ عابئٍ برأي لجنةِ الفنّانين، ولا بلجنةِ الموظفين الذين استغربوا تصرُّفَه الفرديَّ الديكتاتوري.

«والمضحكُ في الأمر، أن الفنانَ الفائزَ الذي كان يَعْتَبِرُ نفسَه تلميذي، فوجئ بنجاحِه، وجاء يعتذرُ لي ويقسمُ أنه لم يكنْ يعلمُ أنني تقدمتُ، وأنهُ لو علمَ ما كانَ يفعلُ! وأنه لمْ يستعملْ أيّ تدخلٍ ولم يعطِ أيّ رشوة!

وتوفّيت الوالدةُ الحبيبةُ، تلك المخلوقةُ النورانيةُ التي لم تعرفْ في حياتِها غير التضحيةِ والعطاء. وبقيَتْ غُصَّةُ عجزي عن إسعادها، ولو لحظةً واحدةً في حلقي إلى اليوم!

«ولكنَّ اللهَ لا ينسى المظلوم! فقد عوَّضني عن تلك المحنةِ، وذلك القهرِ بتَوَهُّج سماويٍّ لموهبتي وطاقةٍ جبارةٍ على العمل، فأحرزَ أولُ معرضٍ لي نجاحًا باهرًا، واستقبلَتْه الصحافةُ الفنيةُ بابتهاجٍ كبير!»

وأدخلَ الفنانُ «كمالُ يوسف» يدَه في جيبه، وأخرج محفَظَتَه قائلاً:

«وما زلتُ أحتفظُ لتلكَ الأيامِ السحريةِ العجيبةِ بأولِ قصاصةٍ صحافيَّةٍ كتبَها مجهولٌ عن معرضي. كانتْ أرقَّ القصاصاتِ وأجملَها، وإليها يرجعُ الفضلُ في تنبيهِ عددٍ من

النقادِ إلى الجوانبِ الجماليَّةِ، وملامح التجديدِ في لوحاتي.»

وأخرجَ القصاصةَ الباليةَ، ولوَّحَ بها أمام الحاضرين، قائلاً:

«لا أدري من كتبها. فقدْ وقَّعها بأحرفِ اسمِه الأولى. وأبى بشهامةِ أن يُفْصِحَ عن هَدِيته!»

وطوى القصاصةَ، وأعادَها إلى مكانِها وهو يتساءل:

«فهلْ تعرفونَ لماذا شطبَ صاحبُ السعادة اسمي؟ عرفتُ فيما بعدُ من بعضِ المقربين إليه.»

وأشارَ إليه صائحًا: «لأنه كانَ رسامًا فاشلاً!»

وضجَّتِ القاعةُ، وتململَ الحاضرون بقلقٍ في مواقفِهم. وأحسَّ منظمو التكريم بحرجٍ كبير...

ولكنَّ الموظفَ المكرَّمَ بَقِيَ هادئًا يُنصِتُ وقد انفرَجَت شفتاهُ عن شبَحِ ابتسامة.

عاد كمالُ يوسف:

«لأنه كانَ فنانًا رقيعًا! "ميديوكر"! حرمهُ اللهُ الموهبةَ الحقَّةَ فأخذَ ينتقمُ من أصحابِ المواهبِ، ويظنُّ أنه سيُخْمِدُ بقراراتهِ الإداريةِ الجائرة ما بثَّهُ اللهُ في صدورِ الموهوبين من مَواهِبَ إلهية!»

وتوقفَ قليلاً، ثم قال:

«والآن، وقد أتممتُ حكايتي الطريفةَ، أدعوكْم،يا أصحابَ السعادةِ والمعالي، إلى زيارةِ معرضي التاسع. وآسفُ إذا لم تجدوا لوحاتٍ تشترونها، فقد بيعتْ كلُّها قبلَ انقضاءِ ساعةٍ على التدشين! وشكراً.»

ونزل، فصفقَ له "عبدالله كرم" وحده تصفيقًا حادًّا. وهمَّ "كمالُ" بالخروجِ متجاهلاً تصفيقَ للرجُلِ، فاستوقفه هذا:

«أرجوكَ يا سي يوسف! لا تذهبْ الآن، واسمح لي بكلمةِ تعقيبٍ على الحكايةِ الشيقةِ التي حكيتَ لنا.»

وصعد الكرسيَّ بمساعدة أحد الحاضرين:

«الإخْوةُ الأعزّاء، أرجوكم إذا قلتُ إنني سعيدٌ بهذه الفرصةِ أن تصدِّقوني!

أولاً: لأن هذا أولُ حفلِ تكريمٍ يقالُ فيه مثلُ هذا الكلامِ عن ضيفِ الشرفِ! على الأقلِّ حسبَ علمي!

ثانيًا": لأن هذا الحدَث الطريفَ أحْيىَ حفلَ تكريمي الذي كان سَيَمُرُّ عاديًا لا يلبثُ جميعُ الحاضرينَ أن ينْسَوْه بمجردِ

خروجِهم. أمَّا بعدَ هذا، فلا أعتقدُ أن أحداً منّا سَيَنْسَاهُ لُمدَّة طويلة.

ثالثًا: لأنَّ أغلبَكم موظفون سامون في يدكمْ قوةُ القرارِ، وهذه الموعظةُ الحيَّةُ كفيلةٌ بأنْ تُمسِكَ بتلابيبكمْ، وتُزعزعَكم من الأعماقِ لتتذكروا أنَّ الأوراقَ التي تَمُرُّ بين أيديكم ليستْ مجردَّ أوراق، ولكنها مصائرُ الناس وحَيَوَاتُهم ونبضُ قلوبِهم وسعادتُهم أو شقاؤهم!

رابعًا: وهذا الأهمُّ، أنا أشكرُ منظمي هذا التكريمَ الذي أتاحَ لي فرصةَ الدفاعِ عن نفسي، وشرحِ موقفٍ وقَفْتُهُ منذ عشرِ سنوات.»

ثم أضافَ وفي عينيه بريقٌ:

«الأخُ الفنانُ الكبيرُ «كمال يوسف» كان على حقٍّ في كلِّ ما قالَهُ!»

وتحركّت القاعةُ في توقع. فأضاف:

«ولكنه لا يعرفُ من الحقيقةِ إلاَّ نصفَها! وأنا أعتذرُ للأخ «كمال» من أعماقِ قلبي على الظلمِ الذي ألْحقتُه به عمداً! وأكررُ: عمداً وعن سبقِ إصرارٍ! وأعترِفُ أنني لم أعْرِفْ عن

مرض المرحومةِ والدتِه إلا الآن. ولا أكتمكمْ أنّ ذلك سبّب لي الآن أزمةَ ضميرٍ حادّة! فهي حالةٌ مؤلمةٌ تأثَّرَ لها الحاضرون جميعًا. فاعتذاري مرةً أخرى. ولكنني لن أعتذرَ عن الظلمِ الذي أَلْحقتُه بفنانِنا الكبيرِ عمداً وعن وعي كامل!»

وسرت همهمةٌ في القاعةِ، فأخذَ «عبدُالله كرم» يُهَدِّئُ الحاضرين بيديه:

«أرجوكم! لابدَّ أنكم تعتقدونَ أنني ظالمٌ جبارٌ أسأتُ استعمالَ سلطتي، ومخلوقٌ حسودٌ شريرٌ. فأرجوكمْ أن تُنْصِتُوا إِليَّ لحظةً قَبْلَ إِصدارِ أيِّ حكم!»

وهدأتِ القاعةُ قليلاً.

«لقد صدقَ الفنانُ "كمالُ" حينَ قالَ إنني كنتُ فنانًا فاشلاً. ولو كنتُ صغيرَ النفسِ لحسَدْتُه وقطعتُ عليه الطريقَ. ولكنْ لا يعرفُ أنني أنا الذي أفشيتُ عمداً نصفَ القصةِ التي حكاها. وذلك عن طريقِ الخادمِ الذي كانَ يصُبُّ لنا الشايَ أثناءَ الاجتماعِ الذي تقرَّرَ فيه مصيرُه. الخادمُ كان رجلاً نمّامًا لا يستطيعُ كتمانَ سرٍّ. ويتطوّعُ بالأسرارِ دونَ أجرٍ»

وسرتْ ضحكةٌ متوترة، فأضاف:

«أما بقيَّةُ القصةِ، فهي أنني حينَ رأيتُ رسومَ الفنانِ "كمال يوسف" بُهِرْتُ بجمالِها، وصفَّقْتُ في داخلي لميلادِ فنانٍ جديدٍ في بلادنا. أدركتُ حالاً أنني أمامَ الشيءِ الحقيقيٌ! فلا يُقَدِّرُ عظمةَ الموهبةِ الحقةِ إلا المحرومونَ منها!»

وصفقَ أحدُ الحاضرينَ بحرارة فتبعه بقيتُهم.

«شكرًا! شكرًا! وصدقوني، أيها الإخوة، إذا قلتُ لكم إنني كنتُ مستعداً. وأنا الموظفُ السامي الذي يقامُ له ويُقعدُ، أن أتَبادلَ معه الأماكنَ، وأتنازلَ له عن كلٍّ ما عندي من سلطةٍ وجاهٍ مقابلَ موهبتِه! وقلتُ للسادةِ أعضاءِ اللجنةِ الذين اختاروه دونَ تردّد: «هذه بذرةُ فنانٍ عظيمٍ، فهل تسمحُ لكم ضمائرُكم بدفنِها في مكتبٍ بمصلحةٍ حكوميَّةٍ؟! إنني أضعُكم أمام ضمائرِكم! إن رفضَه الآن لصالحِ فنانٍ لا موهبةَ له سيُغْلي دَمَه، سيثيرُه من أعماقه ويوقدُ فيه شعلةَ الغضبِ التي لابدَّ منها لتفجيرِ بركانِ الإبداعِ والعبقريَّةِ. سوفَ يحترقُ ويتعذَّبُ ويجوعُ ويعْرى، وفي النهايةِ سيخْرُجُ من البَوْتَقَةِ ذهبًا

خـالصًـا. فـمكاتبُ الوظائفِ لا يسكنُها العظمـاءُ. وسقـوفُ المكاتبِ لا يخترقُها الإلهامُ!»

وضجَّت القاعةُ بالتصفيق.

«شكرًا، مرةً أخرى. وأعترفُ لكم، كذلك، أنني رفضتُ الفنانَ الشابَّ ويدي على قلبي خوفًا من أن يَفْقِدَ ثقتَه بنفسِه وفنِّه وتموتُ موهبتُه في مهدِها! وبقيتُ أتتبَّعُ أخبارَه في الصحافةِ الفنيةِ. وفي الإذاعةِ والتليفزيونِ وقاعاتِ العرضِ. ولن تَتَصَوَّروا مبلغَ سعادتي وارتياحي حين زُرْتُ أوَّلَ معرضٍ له في غيابه. وقد كتبتُ كلمةَ تقريظٍ مسهبةً لعملِه في دفترِه، ووقعتُها بنفسِ الإمضاء الذي وقّعْتُ به قرارَ رفضه كموظفٍ. وأنا، كذلكَ، أحتفظُ بنسخةٍ من نفسِ القصاصةِ التي يحتفظُ بها فنانُنا الكبيرُ، ويعتزُّ بها. (يخرجها من محفظته، ويعرضُها على الحاضرين) أحتفظُ بها لسببٍ خاصّ، كذلك، لسببٍ لا يعرفُه فناننا الكبير، رغم مرورِ هذه المدةِ الطويلةِ. ذلك هو أنني أنا كاتبُها. وهي موقعةٌ بأحرفِ اسمي الأولى: (ع.ك)...»

وطغى التصفيقُ والهتافُ على بقيةِ كلماتِه. وسقطَ فكُّ "كمال يوسف"، ووقفَ يحملقُ في الخطيبِ المتقاعدِ بفمٍ مفتوحٍ، غيرَ مصدقٍ ما يسمعُه، وهذا يلوّحُ في وجههِ بالقصاصةِ الباليةِ ويبتسمُ، وقد لمعتْ في عينيْه آثارُ دموعٍ...

وجاءَ من دَفَعَ الفنانَ المشدوهَ من الخلف نحوَ الرجلِ الذي فتحَ له ذراعيه مُرَحِّبًا:

-هل تغفرُ لي خطيئتي الآن؟ وغطّى "كمالُ يوسف" وجهَهُ بكفيْه مغلوبًا، يكافحُ للخروجِ من مزيجٍ من الانفعالاتِ المتضاربةِ، يختلطُ فيها الخجلُ والألمُ والامتنانُ، ويحاولُ أن يحجبَ دموعَ التأثرِ التي فاجأتْه!

وضمّه "عبدُالله كرم" بحرارةٍ:

«تهانئي الحارة من أعماقِ القلبِ!»

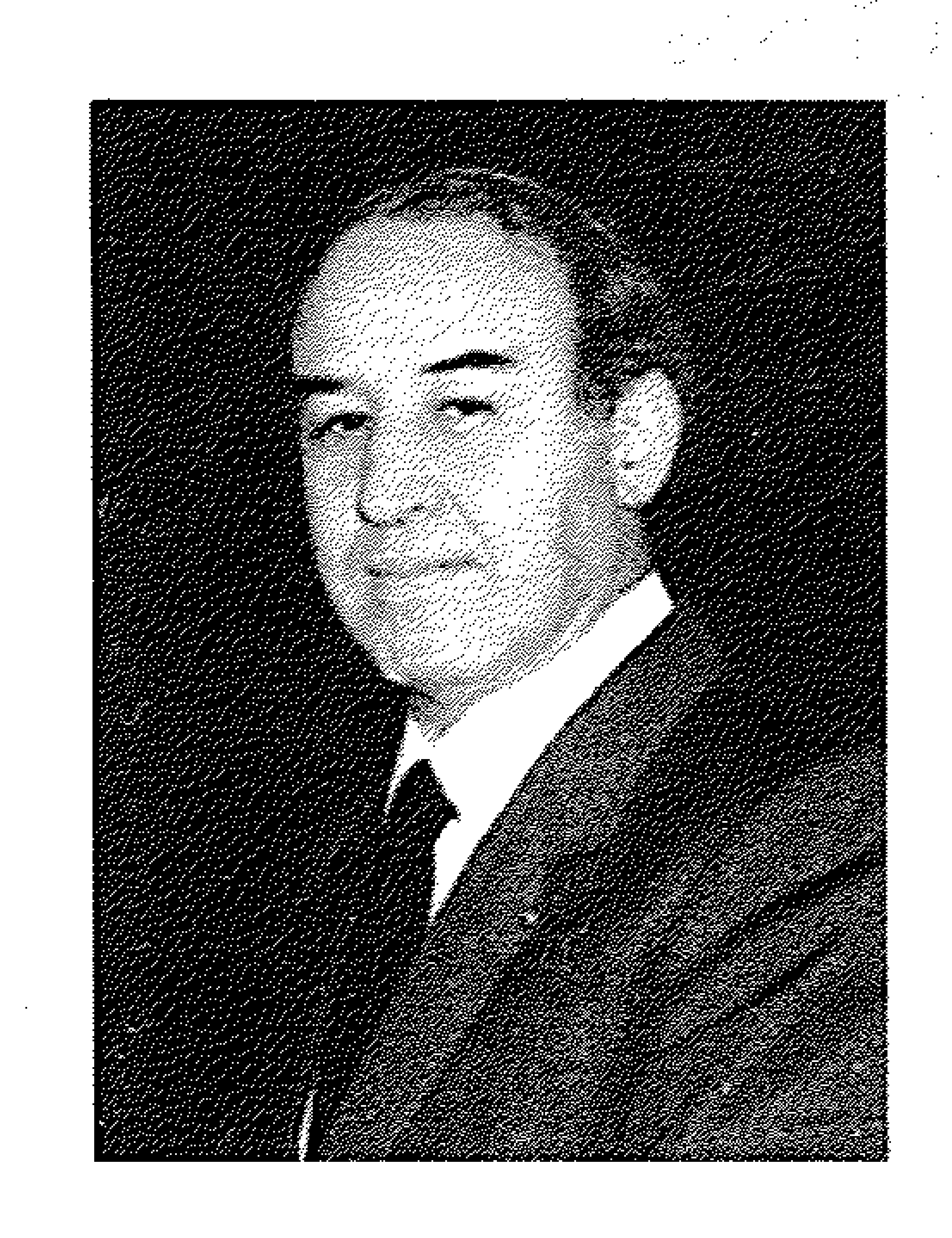
ولم يزدْ "كمال" على أن قال:

«لا أدري ما أقولُ! سامحني! أنا مغلوبٌ، أعترفُ بأنني مغلوبٌ!»

وضمَّ خَصْمَه القديمَ إليه بحرارةٍ.



هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي ، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » .

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس ، وخياله الخصب ، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى ، ومن عالم إلى آخر ، يقرب ... ث الماضي البعيد ، ويلقي الأضواء على عوا ... بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض ... فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ... ة الحديثة للشباب في العالم العربي .

٩٩٦٠ - ٤٠ - ٠٩ - ٣



